فريق التفريغ بموقع الطريق إلى الله
يـــقـــدم

برنامج " مجالس القرآن سورة الأعراف "

الدرس الرابع الآيات ٢٤- ٣١

(باللهجة المصرية)

لفضيلة الشيخ: أحمد عبد المنعم

رابط المادة: https://way2allah.com/khotab-item-129824.htm

بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله -صلَّى الله عليه وسلم-

نستكمل بإذن الله -عز وجل- وقفات مع سورة الأعراف، كنا توقفنا عند قوله -سبحانه وتعالى- آية ٢٤ "قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ" الأعراف: ٢٤، تكلمنا في المرة الماضية على كيف نجح إبليس-عليه لعنة الله- في المعركة الأولى بينه وبين أبينا آدم، وأن المعركة مستمرة، وكانت هذه هي البداية وليست هذه النهاية، ولابد للإنسان أن يستحضر دائمًا وأبدًا هذه القصة ليستشعر العداوة التي حدثت بين إبليس -عليه لعنة الله- وبين أبينا آدم -عليه السلام-، حينما يستشعر الإنسان هذه العداوة، وأنها عداوة موروثة في بني آدم ومع الشيطان وقبيلة، لذلك لابد أن نتخذ الشيطان عدوًا، ومما يساعدنا على اتخاذ الشيطان عدوًا تَذَكُّر هذه القصة كثيرًا وقراءتها كثيرًا.

الذي يوفقه الله إلى التوبة هو الموفق

قال ربنا -سبحانه وتعالى-، كنا توقفنا عند قوله -سبحانه وتعالى- "قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ" الأعراف: ٢٣، كانت آخر آية تكلمنا عنها المرة الماضية، تكلمنا في مسألة هذا الشعور الذي يسيطر على الإنسان، شعور "وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ" التوبة: ١١٩ ، هذا الشعور الذي يسيطر على الإنسان أنه ليس له إلا الله، لن ينجيه من هذا الموطن إلا الله، وأنه إن لم يغفر الله -عز وجل- له سوف يهلك، "لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ"، سوف تكون كل الخسارة، سوف تكون الخسارة فادحة، يخسر كل شيء، يبقى إذًا الإنسان الذي لا يتوب هو إنسان خاسر، والإنسان الذي يوفَّق للتوبة هو الإنسان الذي انتصر على الشيطان.

يبقى قضية الانتصار على الشيطان لا تكون فقط بمجرد معصية الشيطان، لكن إذا وقع الإنسان في المعصية قد ينتصر على الشيطان أيضًا بالتوبة، فقالوا "وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ"،

لذلك لما نزلت توبة كعب بن مالك –رضي الله عنه– قال له النبي –صلَّى الله عليه وسلم– "أبشر بخير يومٍ مر عليك منذ ولدتك أمك"[1] فكانت هذه الخيرية خيرية التوبة.

"وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ"، قال ربنا –سبحانه وتعالى– قَالَ: "اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ" الأعراف: ٢٤، استشكل بعض العلماء قضية كيف بعد أن تلقى آدم –عليه السلام– الكلمات، وتكلم بها، وتاب الله –عز وجل– عليه لماذا أنزله إلى الأرض؟ أيًّا كان هما بيحاولوا يستشرفوا الحكمة من ذلك، ممكن يكون هذه الشجرة التي أكل منها آدم عملت تغيير حقيقي لسيدنا آدم استوجب أن ينزل إلى الأرض، وأن يجاهد شهوته، هذه السوءة التي ظهرت، وأيضًا ظهرت معها الشهوة، هذه الشهوات لابد أن يجاهدها الإنسان حتى يعود مرة أخرى إلى الجنة.

كل إنسان يحتاج لفترة نقاهة بعد التوبة من الذنب

كما ضربنا مثال أن فيه فارق بين التوبة، وبين التخلص من أثر الذنب، ودي نقطة مهمة جدًا جدًا في السير إلى الله –سبحانه وتعالى–، وضربنا مثال فيما أذكر، إن واحد مثلًا بيشرب مخدرات، أو واحد في قلبه شهوة معينة، هو ممكن يتعرض لظروف، هذه الظروف موت أحد أقربائه، مرض، تجعله يندفع إلى الله –سبحانه وتعالى– ويتقرب إلى الله ويتوب، فترك الذنب، لكن آثار هذا الذنب لازالت في جسده، آثار الشهوة لازالت في قلبه، آثار المخدرات لازالت في بدنه، فيحتاج إلى فترة زمنية من المجاهدة للتخلص من أثر هذا الذنب، بالرغم أنه تاب، وعفا الله –عز وجل– عنه، وخلاص وندم وبكى، وفعل شروط التوبة، الترك، والندم، والعزم، فعل كل الشروط، لكن لازالت آثار المعصية معه فيجاهد للتخلص من آثار المعصية.

ده أمر مهم جدًا، إن الإنسان بيحتاج إلى فترة من فترات النقاهة بعد ترك الذنب، أشبه لما بيحدث مثلًا الجراحين لما بيحبوا يستئصلوا ورم فبياخدوا معاه منطقة بيسموها safety area، أو safety margin، بياخد منطقة سليمة معاها، حتى لا ينتشر هذا الورم، كذلك الإنسان بيكون في حالة من حالات الضعف، أشبه بالإنسان اللي بيعمل عملية وبيقوم، أو بيخرج من مرض، بيكون لسه المناعة عنده مش مكتملة، مرجعتش للطبيعة، هذه الفترة فترة مهمة جدًا في فترات بداية التزام الإنسان، أو بداية ترك المعاصي، هذه الفترة الإنسان بيكون فيها ما بين إقبال على الله وبين حالة ضعف، ويشعر بنوع من العصرة في الصدر، نوع من الضغط على صدره، لأنه الآن في هذه اللحظات تُنزَع الشهوة منه، هو بيقوم بمحاولات لنزع الشهوة، فيتألم لخروج الشهوة ويفرح بالإقبال على الله.

---

[1] "....فَإِذَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ جَالِسٌ في المسْجِدِ وَحَوْلَهُ النَّاسُ، فَقَامَ طَلْحَةُ بنُ عُبَيْدِ اللهِ يُهَرْوِلُ حتَّى صَافَحَنِي وَهَنَّأَنِي، وَاللَّهِ ما قَامَ رَجُلٌ مِنَ المهَاجِرِينَ غَيْرُهُ. قالَ فَكانَ كَعْبٌ لا يَنْسَاهَا لِطَلْحَةَ. قالَ كَعْبٌ: فَلَمَّا سَلَّمْتُ علَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ قالَ: وَهو يَبْرُقُ وَجْهُهُ مِنَ السُّرُورِ ويقولُ: أَبْشِرْ بخَيْرِ يَومٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ...." صحيح البخاري

فبيمر بحالات من الاضطراب هذه المرحلة من أهم المراحل التي يحتاج فيها الإنسان إلى التصبُّر، وإلى الصحبة الصالحة حتى تصبره، فنزل آدم إلى الأرض بأمرٍ من الله –عز وجل– ليجاهد، ها هنا نزل ليدفع ثمن الجنة، أدخله الله –عز وجل– الجنة أولًا بدون ثمن، فلما عصى لابد أن يدفع الثمن، لابد أن يطيع الله –عز وجل–، "قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ"، كتير من العلماء قال "بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ "، أي سيدنا آدم وحواء في فريق بني آدم، والشيطان في فريق، وظن بعضهم الحيَّة وهي إن كانت من الإسرائيليات، إن الشيطان استغل الحيَّة قصص في الإسرائيليات، فهنا بعضهم قال إيه، عشان لو حد قرأها في التفاسير إن هنا الجمع لآدم –عليه السلام– والشيطان والحيَّة، وأن العداوة مستمرة بين الشيطان وبين الحيات، روي عن النبي –صَّلى الله عليه وسلم– حديث في سنن أبي داود، قال النبي –صلَّى الله عليه وسلم– "ما سالَمْناهنَّ منذُ حارَبْناهنَّ" [٢]، أي الحيَّات، يعني مش هيحدث مسالمة أبدًا بين الإنسان والثعابين.

يجب أن نتعلم أننا خُلِقنا لمهمة محددة

أيًّا كان "اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ"، إذًا هو نزل في وظيفة معينة، مش نزل نزول دائم، وهنا طريقة التعامل مع وجودنا في الأرض، أننا في وظيفة، أننا في مهمة، الإنسان لما بيذهب لمكان ويشعر أنه في مهِمة طريقة حياته بتختلف، عن ما الإنسان الذي يذهب ليكون استقرار دائم، هو نزل في الأرض، "إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ"، أي يُقيم شرع الله –عز وجل– في الأرض، قضية أن الوظيفة هي تعمير الأرض بعيدًا عن شرع الله ده أمر غريب على الدين وليس من الدين في شيء، لأن أي تعمير للأرض، بناء؛ حتى دنيوي بدون دين يؤدي إلى الفساد حتمًا، لذلك لابد من الجمع بين الاثنين، والأصل هو تطبيق مراد الله –عز وجل– وشرع الله –عز وجل–، تطبيق شرع الله –عز وجل– في الأرض.

فالملائكة تُطبِق مراد الله –عز وجل– في السماء، واصطفى الله –عز وجل خَلقًا من خلقه لينزل إلى الأرض، وهذا الخَلق الذي اصطفاه الله –عز وجل– لينزل إلى الأرض كان مخلوقًا من الأرض، لينازع شهواتها، ويقاوم ملذاتها، "وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ"، إلى لحظة البعث، "قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ" الأعراف: ٢٥، أي في الأرض، بعض العلماء استدل بالآية دي، مسألة في التنبؤات المستقبلية إن طالما ربنا قال لآدم إنت هتحيا في الأرض وتموت فيها، وإن تقديم فيها يفيد الاختصاص، إن لن تظهر حياة على كوكب تاني غير الأرض، بعض العلماء هنا من الإشارة لكلمة "فِيهَا تَحْيَوْنَ".

هل القرآن يؤكد لنا عدم وجود حياة إلا على الأرض؟

ومن آيات أخرى أن لن يكتشف العلم مهما تقدم ما كان يصلح للحياة غير الأرض، بعض العلماء ردوا عليهم قالوا الآية مش صريحة، أنا ليه ذكرت المبحث ده وإن كان هو مش مهم معانا أوي ليه ذكرته؟ لنقطة مهمة، نفترض إن هما

[٢] "ما سالَمْناهنَّ منذُ حارَبْناهنَّ . يعني الحيَّاتِ . ومَن ترَكَ قَتْلَ شيءٍ منهنَّ خيفةً فليس منَّا" صحيح ابن حبان

اكتشفوا حياة خارج الأرض مع أن فريق من العلماء استنبط من الآيات من القرآن ومنها هذه الآية إن مفيش حياة خارج الأرض، طب افرض اكتشفوا هل هنا هنكذَّب القرآن؟ وهنقول أن العلم الحديث أثبت شيء مضاد للقرآن فننكر آيات القرآن، وتبدأ بقى تدخل الريبة والشك في صدورنا تجاه القرآن.

لأ هو هنا لو افترضنا، هنفترض جدلًا، لو افترضنا إن هما لقوا حياة فعلًا خارج الأرض، هل ده معناه إن احنا في حصل تصادم بين العلم الواقعي اللي أصبح واقع مع القرآن؟ ولا التصادم حصل بين إيه وبين إيه؟ بين العلم وبين استنباط هذا الرجل، ده مش نص قطعي، ولذلك ودي إشكالية أحيانًا بتحدث في الإعجاز، أو فيما يُسمَّى بالإعجاز العلمي في القرآن، لإن المفروض أن الاعجاز البلاغي أيضًا هو من العلم، والإعجاز التشريعي هو من العلم، فتسمية أن العلوم الدنيوية هي اللي اسمها إعجاز علمي، وإن اللغة والتشريع والتربية وده لا يُسمَّى إعجاز علمي ده مسألة متأثرة بالتقسيمة المعاصرة للعلوم.

فالشاهد أن مثلًا لو بعض العلماء في قديم الزمان استنبط من القرآن أن الأرض ليست كروية، وبعضهم استنبط أن الأرض كروية وده الأكثر ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية أشار أن الأرض كروية، طب الفريق اللي قال أن الأرض ليست كروية وتم بالفعل خلاص الأمر أصبح يقيني أن الأرض كروية، هل ده يُصادم القرآن؟ هذا لا يُصادم القرآن، ده يُصادم استنباط هذا الرجل هذا العالم، هو أخطأ في هذا الاستنباط، فلا تُعارض الاستنباطات بالعلم اللي تم إثباته يقينًا، مفيش معارضة هنا، هنا يُقَدَّم العلم، احنا كده مش بنقدم العلم على القرآن لا، لكن لو النص قطعي الدلالة، قطعي الثبوت، والقرآن قطعي الثبوت، وقطعي الدلالة مفيش خلاف في دلالته.

لأن دي من شبهات، للأسف ألاقي حد إيه يقول أنا عندي شك في القرآن وإن هو بدأ يتجه ناحية الإلحاد، فأسأله ليه؟ يقول لي أنا قرأت فتوى لأحد العلماء إن الأرض ليست كروية، والعلم دلوقتي اكتشف أن الأرض كروية، فأنا بدأت أشك في الدين، ده واحد بيتلكك، ده مفيش علاقة، هو ربنا –سبحانه وتعالى– عندنا ده قطعي الدلالة، هل علماء المسلمين أجمعوا قاطبةً على أن الأرض ليست كروية، وعندنا نص صريح قطعي الدلالة قطعي الثبوت في ذلك، لا معندناش، فبالتالي هذه الخلافات لا تجعل الإنسان يشك في دينه.

النداءات في سورة الأعراف

"قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ"، ثم بدأت أربع نداءات، "يَا بَنِي آدَمَ" الأعراف: ٢٦، هذا النداء اللي شبه فيه اختصاص في سورة الأعراف بهذا النداء، جه في أربع مواطن متتالية هنا معانا، يا بني آدم أربع نداءات متتالية، "يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا" الأعراف: ٢٦، "يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ" الأعراف: ٢٧، "يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ" الأعراف: ٣١، آية ٣١، "يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ" الأعراف: ٣٥، بعض العلماء حاول يقف مع هذه النداءات الأربع وقفة، العلماء اتجهوا لماذا في هذه السورة تحديدًا جاء هذا النداء يا بني آدم؟ وده

لم يأتِ في سورة غيرها، إلا في موطن سأشير إليه، لماذا جاء بيا بني آدم، يا أيها الإنسان في سور كثيرة، يا عبادي، فحينما ينادي الله –عز وجل– على الناس، يا أيها الناس، يا أيها الإنسان، يا عبادي، هنا الاختصاص يا بني آدم.

فبعضهم حاول يجمع النداءات الأربع ويستخلص المعنى الأساسي من النداءات الأربع، ونجد أن المعنى الأساسي من النداءات الأربع بيركز على قضية اتقاء الفتنة الأولى التي وقع فيها آدم –عليه السلام–، وإن الغرض الأساسي غرض التعرّي، بل إن الشيطان يريد أن يستمر هذا التعرّي حتى في المساجد، مش بس كشهوة عابرة، الشيطان عايز ينقل المعصية إلى مكان الطاعة، فجه الأمر المضاد "خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ"، والأمر الرابع "يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ"، اتباع الرسل اللي هو محور أساسي في سورة الأعرف.

اللي حاولوا من العلماء يتوقف مع هذه النداءات، بعضهم جمع النداءات الأربع، وبعضهم قال لا، فيه خاصية معينة لكلمة بني آدم، كلمة بني آدم ليها خاصية معينة، أول شيء هذا النداء جاء بعد القصة مباشرة، أذكروا ما حدث مع أبيكم آدم ولا تقعوا في مثل ما وقع، فآدم لم يكن له خبرة، أنتم الآن لكم هذه الخبرة، آدم –عليه السلام– لم يعصِ من قبل، لم يتعامل مع الشيطان من قبل، كان أول تعامل، كان أول وقوع، كانت أول خطيئة، فكان قد يكون معذور ليس لكم أنتم هذا العذر، يا بني آدم تذكروا جيدًا، تذكروا دائمًا ما حدث مع أبيكم، تذكروا المقصد الرئيسي للشيطان مع أبيكم، أو مع أبويكم.

وأيضًا كان الدكتور فريد الأنصاري أشار في كتاب "جمالية الدين"، إن نداء الإنسان له مقصد معين، ونداء بني آدم بيشير إلى الضعف اللي في الإنسان، فدايمًا بني آدم في معنى التذكير والتنبيه للضعف الذي في بني آدم، تاني؛ إن نداء بني آدم في القرآن بيلمس شيء معين داخل الإنسان، يا عبادي التذكير بالعبودية، طب يا بني آدم تذكير بإيه؟ تذكير بالضعف الذي بداخل الإنسان حتى يتنبَّه، إنت جواك ضعف معين، فلما أقول لك يا بني آدم تذكر في علاقتك بآدم، تذكر وقوع آدم –عليه السلام– حتى لا تقع مثلما وقع.

لذلك كلمة بني آدم جت في موطنين تانيين غير الأربع نداءات دول، فيما أذكر يعني، ممكن يكون في مواطن تانية في القرآن، "أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ" يس: ٦٠، كان أيضًا تذكير بالعهد، سورة يس، ومعنا في نفس السورة أيضًا، "وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ" يس: ١٧٢، أيضًا كان العهد والميثاق، فقضية بني آدم في القرآن بتدور حول التذكير والتنبيه بالضعف الذي داخل الإنسان، التذكير بالعهد، التذكير بالميثاق، فجاءت النداءات الأربع المتتالية لتتذكر هذه العلاقة التي بينك وبين أبيك آدم حتى تتنبه وتكون في أشد الاستعداد لمواجهة الشيطان، وأن تتخذه عدوًا، يا بني آدم؛ فجاءت النداءات الأربع بعد القصة مباشرة لتثأر لأبيك، تستثير بداخل الثأر، وأن تتذكر هذا المشهد الذي حدث مع أبيك في ظهور السوءة في خروجه من الجنة، في نزوله إلى الشقاء والعناء، أن تتذكر هذا المشهد دائمًا يجعلك تحترز في كل وسوسةٍ تأتي إليك من الشيطان.

وظيفة الشيطان هي الخروج بنا من الجنة

في كل وسوسةٍ يأتي بها الشيطان إليك، ليصرفك عن منهج الله –سبحانه وتعالى– تحترز لتتذكر أن غرض الشيطان الرئيسي هو التعرّي والإخراج من الجنة، الشيطان يريد أن يصل بنا إلى الخروج من الجنة، "يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ" الأعراف: ٢٦، أول نداء كان الحل لما حدث من ظهور السوءة، ظهرت السوءة في الجنة، "وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ" الأعراف: ٢٢، فلما نزلا إلى الأرض أول نداء لهما أن ربنا –سبحانه وتعالى– بيصلح لهم ما حدث لهم بأنه أنزل لهم لباسًا يواري سوءاتهم، وكأن أول شيء المفروض يعمله الإنسان بعد التوبة أن يتقي أسباب الرجوع إلى الذنب مرة أخرى، وأن يحترز وأن يضع حواجز، وأن يستر ما حدث، وأن يمحو آثار الذنب.

فأول نداء نعمة من نعم الله –سبحانه وتعالى– وآية من آيات الله –سبحانه وتعالى– حتى يستر أثر الذنب، يبقى الإنسان لما يجي يعصي أول حاجة يعملها بعد التوبة أنه يستر آثار هذا الذنب، إنه يبتعد عن أماكن المعصية، أنه يُكثِر من الاستغفار، زي ما فيه ستر للعورة حِسي فيه ستر أيضًا للقلب، هذا القلب الذي وقع في الشهوة يحتاج إلى ستر، يحتاج إلى لباس، لذلك قال الله –سبحانه وتعالى– "وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ"، حتى ينصرف القلب عن المعصية، ولا يتذكر أكلة الشجرة، لا يتذكر هذه الشهوة، لا يتذكر هذه المعصية.

"يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا"، كثير من أهل العلم قال الريش هو اللبس الزيادة في التزين، وإن "أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا"، اللبس الضروري لستر العورة، إن الإنسان ممكن يرتدي إزار، أو لبس الضروريات اللي تغطي عورة الإنسان، ثم بعد ذلك يتجمل الإنسان ويتزين وهذا ليس عليه حرج أن يتزين الإنسان، وأن يتجمل، فالريش للتجمُل، أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا"، لهذا لستر العورة الرئيسية، "أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ".

انظر كيف أن الشيطان أراد أن يريهما سوءاتهما، وانظر كيف أن الله –عز وجل– أراد أن يسترهما، هكذا دائمًا الذي يتبعون الشهوات يريدون أن يُظهروا السوءات، والله –عز وجل– يريد لنا السِتر –سبحانه وتعالى– هو ستير –سبحانه وتعالى–، فأنزل عليكم لباسًا يواري سوآتكم وريشا، ثم قال ربنا "وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ"، يعني إيه؟ "وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ"، القراءة بتاعتنا بالرفع ولباسُ التقوى، استئناف من أنزل عليكم لباسًا، هذا اللباس لتغطية السوءة والعورة الحسية، لكن القلب أيضًا مليء بالشهوات، ومليء بالأمراض فيحتاج أيضًا إلى ستر، يحتاج إلى وقاية وبُعد، لذلك ربنا قال لسيدنا آدم "لَا تَقْرَبَا"، "لَا تَقْرَبَا" دي وقاية، "لَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ"، هنا بنقول ده وقاية خير من العلاج، فجاءت كلمة لباس التقوى، والتقوى من الوقاية أن تتقي أن تحترز قبل أن تقع في المعصية، فأنت تحتاج على قلبك أيضًا ستر، ووقاية وبُعد بينك وبين المعاصي.

نحتاج دائمًا إلى مسافة بيننا وبين المعصية

تحتاج إلي مسافة زي ما اتكلمنا المره اللي فاتت على قدر خطورة الشيء، على قدر الابتعاد عنه، تحتاج إلى نوع من الوقاية والبُعد عن الشهوات، الاختلاط مع النساء؛ تقلل ذلك، أماكن المعصية؛ تبتعد عنها، حتى لو مباح، حتى لو الأمر ده مباح، وهنتكلم الآن إن شاء الله في السياق معانا في الآيات، كيف تتطور الأمور من المباحات إلى المعصية، إلى الشرك، وأن الشيطان دايمًا ينظر إلى المآلات، الشيطان لا يتعجل، الشيطان مش مستعجل، الشيطان ينظر إلى المآلات، فالإنسان أيضًا لابد أن يكون حكيمًا وينظر إلى مآلات الأفعال، فيتوقف عند المباحات التي قد تؤدي إلى الحرام وقد يتعامل بنوع من اللين مع المكروهات التي يوقن أنها لن تتطور.

يعني أنت بتتعجب أن فيه عالم بيشدد في أمر مباح، وقد يتساهل في أمر مكروه. ليه؟ لأن هذا الأمر المكروه أصلًا مش محبب جدًا إلى النفس، وإن له دايمًا حد معين لا يتطور بالغالب، لكن هذا المباح ولا سيَّما لو إنسان مثلًا التعامل بالاختلاط هو شاب مع فتاة شابة، مع استعار الشهوات، هو مش متزوج؛ هذه الأشياء هذا التعامل قد يكون مباح لكن هذا المباح في الغالب يؤدي إلى حرام، فتجد أن العالم ينظر إلى المآلات، لكن كثير من عوام الناس لا ينظر إلى هذه المآلات فيتعجبون كيف شدد العالم في المباح وسكت وتعامل بنوع من اللين مع هذا المكروه، إنك أمر مثلًا مكروه معين لكن في الغالب لا يتطور، فالنظر إلى المآلات أمر هام.

لماذا استُخدِم لفظة لباس التقوى؟

فهذه كلمة "وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ"، لذلك قالوا التقوى هنا الخشية أو الإكثار من العمل الصالح، أو السمت الصالح واختار الطبري كعادته العموم إن "وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ"، "كل شيء تلبسه على قلبك يجعل بينك وبين المعصية وقاية تتقيه"، لذلك لما العلماء اتكلموا إن تشبيه التقوى باللبس إيه الغرض منه؟ تشبيه التقوى باللبس؟ الليل اتسمى لبس في القرآن، الزوج للزوجة، والزوجة للزوج شُبِّه باللبس، فقضية هنا تشبيه التقوى باللبس إيه الغرض من التشبيه؟ الطبري اختار اختيار قال: "اللبس أن يظهر عليك أثر الشيء أو عينه"، يعني إنت لما تلبس حاجة يا إما تشوف عين الشيء عليك، عين يعني ذات الشيء مش عين يعني الجلابيه لها عين. عين، يعني يظهر عليك عين الشيء يعني الحاجة اللي إنت لابسها دي تظهر عليك ده يبقى أنت لبستها قدامي، أو أثر الشيء لو معنوي.

"فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ" النحل: ١١٢، هذه القرية ظهر عليها آثار الجوع والخوف، لما تجيب كلمة اللبس وآية سورة النحل آيه معجزة، جابت الإذاقة مع اللبس، مقلش فأذاقها الله طعم الجوع والخوف، ولم يقل فألبسها الله لباس الجوع والخوف، أتى بالذوق لشدة الألم وتغلل هذا الألم، الإنسان لما بيذوق شيء بيصل إلى داخله واللبس للعموم والشمول وظهور أثر ذلك. فالطبري قال:"لباس التقوى أي ما يظهر عليك من أثر التقوى في العمل الصالح فإذا"، ركز معايا في المعنى ده، "فإذا غطت التقوى قلبك ظهر أثر التقوى على الجوارح"، إذا كان القلب متقيًا ظهر

ذلك الأثر على الجوارح، تجد العين تتقي الحرام، واليد تتقي المال الحرام والقدم تتقي الذهاب إلى الأماكن الحرام، فهنا سُمي لباس التقوى.

لابد أن يهتم الإنسان بباطنه أكثر من ظاهره

الإمام ابن عاشور ده كان اختيار الطبري في التشبيه، ابن عاشور قال: لا، "اللبس لا يفيد الملازمة" وإن الليل ملابس وملازم للإنسان وفيه تلازم بين الزوج والزوجة في اللبس. هنا لباس التقوى، أي أن هذه التقوى ملازمة للإنسان لا يخلعها فـ "وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ"، أي التقوى التي تلازمك ولا تفارقك في الغيب والشهادة، أسألك خشيتك في الغيب والشهادة، كلمة الحق في الغضب والرضا، إن الإنسان يحافظ على التقوى بالرغم من تغير الظروف "وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ"، أي أن الإنسان كما أنه يهتم بظاهره لابد أن يهتم بباطنه، زي ما الإنسان يهتم ويتجمَّل بظاهره ويلبس اللباس الذي يغطي سوءته وعورته كذلك أيضا لابد أن يهتم بباطنه بل الاهتمام بالباطن أولى.

"وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ"، الاهتمام بالباطن الأولى، "إن الله –عز وجل– لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أجسادكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم"[٣] متفق عليه، إذًا لباس التقوى كما أن الإنسان يهتم بالظاهر، يهتم بالباطن هنا مفيش إهمال للظاهر، لا عشان محدش برضه يقول إيه أصل أهم حاجة القلب ومش مهم الطاعات الخارجية، أو لما تيجي تكلم إمرأة في الحجاب أو رجل في اللحية يقول لك أصل مش مهم، المهم الباطن لا ما هو زي ما فيه اهتمام بالظاهر فيه اهتمام بالباطن، وكلما كان الباطن نقيا كلما ظهر ذلك على الظاهر.

فطرة الإنسان الطبيعية هي حب التستر

"وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ"، بعض العلماء قال، لأن فيه قراءة "وَلِبَاسَ التَّقْوَىٰ"، أي أنزل الله لباس التقوى ذلك خير أي ستر العورة هو خير لكم "يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ" الأعراف: ٢٦، أي هذا اللباس الذي أنزله الله –عز وجل– خيرٌ لكم في دينكم، "ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ"، آيات الله إما تأتي آيات تشريعية أو آيات كونية من النعم، فإما ذلك من آيات الله، أي هذا من تشريع الله لكم أن تستروا عورتكم، أو ذلك من آيات الله هذا من نعم الله عليكم أن أنزل، وعلمكم وجعل في فطرتكم حب التستر، قضية حب التستر ده من الفطرة، زي ما هنشوف أن الشيطان يريد أن يعاكس هذه الفطرة عند قوله –سبحانه وتعالى–: "يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا" الأعراف: ٢٧، "ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ" الأعراف: ٢٦ .

النداء الثاني: "يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا" الأعراف: ٢٧، النداء الأول كان تصحيح الخطأ اللي وقع فيه آدم، وأن الله –عز وجل– لم يتركه أعطاه حل يصحح له ما حدث له بسبب الوقوع في المعصية، "يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ"، العلماء هنا

---

[٣] " إنَّ اللهَ لا ينظرُ إلى أجْسامِكُمْ، ، ولا إلى صُوَرِكُمْ ، ولكنْ ينظرُ إلى قُلوبِكُمْ" صححه الألباني

وقفوا يعني إيه "لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ"، قالوا كان أصل الجملة لا يفتننكم الشيطان فيخرجكم من الجنة كما فتن أبويكم فأخرجهما من الجنة، تاني يبقى كان عندي جملتين وجملتين، يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان فيخرجكم من الجنة، كما فتن أبويكم فأخرجهم من الجنة، يبقى عندي جملتين وجملتين يعني عندي أربع جمل، اتشالت جملة من الجملتين الأولنين وجملة من الجملتين التانيين واتحطوا على بعض ده بيسموها الاحتباك، إن بدل ما يتقال أربع جمل، أشيل جملة من هنا وجملة من هنا ويضموا على بعض.

فأنا أفهم من هذا الضم إن مآل المعاصي الذي يؤدي إلى الشرك هو الإخراج من الجنة "يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ" وأن الشيطان يبحث بداخلكم عن مواطن الفتنة- "يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ" كما فتن أبويكم فأخرجهم من الجنة، فاحذر أن مآل اتباع خطوات الشيطان هو الخروج من الجنة و-العياذ بالله- "كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ" استثارة الغضب لما حدث لأبينا آدم وأن تأخذ بالثأر، وأن لا تستسلم للشيطان، تذكر هذه القصة دائمًا أن يجعل بداخلك هذا المعنى أن تثأر لأبيك آدم "كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ"، وأن العلاقة بالرغم أن هي علاقة أجداد بأبينا آدم لكن نسب مباشرة أبويكم، لم يقل كما أخرج أجدادكم، قال أبويكم كأن فيه علاقة مباشرة بينك وبين أبيك آدم.

"كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ"، قالوا ده حال الخروج، أثناء الخروج ومن أسباب الخروج "يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا"، شوف كلمة ينزع دايمًا النزع بيكون أمامه قوة مضادة، "تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء " آل عمران: ٢٦، مفيش حد لما بيجي يتاخد منه المُلك بيقول له اتفضل، مفيش حد تيجي تشيل منه المُلك يقول لك آه فعلًا أنا معدتش محتاج المُلك أنا بقالي فترة، أنا زهقت، أنا بقالي فترتين كده كفاية أوي، الكرسي بتاع المُلك دايمًا فيه غرا بيلزق، اللي بيقعد عليه مبيعرفش يقوم، فلذلك لما بيتشال بيتشال نزعا "وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ".

فدايمًا النزع فيه مضادة فـ "يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا"، أن الشيطان الآن يفعل فعل مضاد لفطرة الإنسان، فصراع الفطرة مع الشهوة، هذا الصراع الذي يحدث بداخلك وأنت تفعل الفعل الحرام، المرأة التي تتبرج هي الآن يحدث بداخلها منازعة بين الفطرة والشهوة، الشهوة تريد النزع والفطرة تريد الستر، هذه المنازعة التي تحدث بداخل قلب وفطرة كل إنسان هو مُقدِم على المعصية أن فيه منازعة تحدث، هذه اللمة التي تأتيه من المَلَك وهذه اللمة التي تأتيه من الشيطان فيه أيتهما يغلب "يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا"، لأن ده أمر مضاد للفطرة.

لذلك كان فيه إشارة جيدة، أشار لها بعض العلماء في مسألة لما كان بنو إسرائيل اتهموا موسى -عليه السلام- بعيب في الخِلقة وقالوا أنه آزر وكان بنو اسرائيل يغتسلون عراة كان موسى -عليه السلام- لا يغتسل معهم عريانا، كان حييا موسى -عليه السلام- فكان يختبيء ويغتسل، كان ممكن حتى يُظهر الله -عز وجل- براءة موسى كان ممكن ربنا يقول لسيدنا موسى اغتسل أمامهم عُريانًا، أمر الله الصخر يتحرك ولم يأمر موسى بشيءٍ مغاير لفطرته، يحرك الصخر ولا يغير الفطرة، أمر الله الصخر ليتحرك بلبس موسى -عليه السلام- حتى يرى الناس موسى فيتعجبوا من حُسن خِلقته، ولم يأمر موسى مباشرة بالاغتسال عُريانا، فقضية تغيير الفطرة أمر شديد وذنب كبير.

فانظر كيف أن الله –عز وجل– حرك الصخرة ولم يأمر بأمرٍ مغاير للفطرة، ومضاد للفطرة قضية التعرّي، فهنا "يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا" واتكلمنا مسألة الشيطان يبحث عن هذه اللحظة التي تظهر فيها السوءة، مشهد وقوف الإنسان بعد أن ظهرت سوءته غصبًا عنه وهو وقف عُريان، مشهد فيه ضعف، مشهد يجعل الإنسان يحتقر نفسه، هذه لحظات الضعف قد تجعل الإنسان ينهار ويسقط في حبائل الشيطان وفي مكائد الشيطان ويستسلم تمامًا، لذلك قلنا أن المعصية تصيب بنوع من الوهن، وأن اللحظات التي بعد المعصية هي من أخطر اللحظات التي يطرق عليها الشيطان مباشرة، يريد أن يصل بك إلى اليأس.

لا تستسلم للوهن بعد المعصية

فمسألة "لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا"، هذا المشهد الذي يقصده الشيطان أن تحتقر نفسك، الإنسان دايمًا لما بيخلص معصية ثم يعاتب نفسه، لابد أن يتوازن الإنسان، أن يندم ثم ينطلق، أن يندم على المعصية ثم ينطلق في التوبة، لا أن يتوقف كثيرًا عند هذه المرحلة، التوقف كثيرًا في مرحلة المعاتبة دون عملٍ صالح يؤدي إلى الوقوع. قال ربنا– سبحانه وتعالى–: "إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ" هود: ١١٤، جاء رجل يشتكي من أمر وقع في شهوة أنه قبَّل امرأة فنزلت الآية لتبين له كيف الخروج من هذه المعصية آخر سورة هود "إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ"، أن يُكثر من الحسنات.

مش القضية نوع من المحزنة والوقوف كثيرًا عند هذا الذنب، هذا يؤدي إلى نوع من الانهيار النفسي، الوقوف كثيرًا في هذه المرحلة يؤدي إلى نوع من الانهيار، لكن العمل الصالح بيُشعِر الإنسان أنه قادر على النجاح، قادر على الخروج من الوحل، قادر على التطَّهُر، لكن الشيطان يريد أن يبقيك بهذه المرحلة، بل يجعلك تسأل يائسًا محبطًا هل لي من توبة؟ معقول ممكن أن أنا أخرج من المكان ده تاني؟ معقول ممكن أخرج من الوحل؟ معقول ممكن أنا أتطهر؟ يريد الشيطان أن يصل بك إلى هذه المرحلة أن تنظر إلى نفسك وأنت في هذه الصورة، وأنت عريان بعد أن نزعت لباس التقوى، يريد أن يقف بك كثيرًا في هذه المرحلة.

حذرنا الله –سبحانه وتعالى– من أسلحة الشيطان

"يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا"، مشهد أن ترى سوءتك وسوءة أخيك، وأن يرى أخوك سوءتك هذا المشهد الذي قد يجعل الإنسان يُصاب بالإحباط واليأس، "إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ" الأعراف: ٢٧، أسلحة الشيطان يحذرنا الله –عز وجل– أنه عدو وأنه يقوم بدراستنا، وأن هذه الدراسة التي يقوم بها الشيطان ينقلها إلى الشياطين الصغار "إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ"، ده يعني مدرسة، ده أجيال تحارب، ويقعدوا يفكروا ده مدخله إيه وده أنا جربت، والشيطان يرسل إبليس عليه لعنة الله يُرسل شيطان لرجل يجرب معاه يجرب معاه مسألة المال، يجرب معاه النساء، يجرب معاه الشهرة، يجرب معه أشياء حتى ينظر كيف يوقعونك "يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ" الأنعام: ١١٢، بيستفادوا من بعض شياطين الإنس والجن أيضًا وشياطين الجن والجن، بيستفادوا من بعض خبرات.

" إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ "، "إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ"، من عقوبة الله –عز وجل– أنه –سبحانه وتعالى– في معاملته للإنسان يحذره وينذره فإذا أصرَّ إنسان على المعصية يبتليه الله –عز وجل– بعقوبة بضرَّاء تجعله يرجع، فإذا أصرَّ الإنسان على المعصية "نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ"، "ومن يشاقق الرسول مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ" النساء: ١١٥، ربنا بيوضحهوله خالص "وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ" التوبة: ١١٥، مرحلة التبيين بتظهر الأول "وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ " .

من يختار المعصية يجعله الله وليًا للشيطان

"وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ"، هداهم الأول وعرَّفهم الطريق الصح، وعرَّفهم الطريق الغلط عشان ميمشوش فيه، هداهم وبيَّن لهم كيف يتقون المعصية، هما أصرّوا؛ يضلهم الله، فالذي يختار المعصية بعد كل هذا يجعله الله –عز وجل– وليًا للشيطان، يجعله صديق له، وهنا مرحلة كيف يتحول العدو إلى ولي "أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ۚ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا" الكهف: ٥٠، تترك الله وتتخذ الشياطين أولياء، فمن العقوبة أن يسهِّل الله ويسر الله لهذه العلاقة، هذه الموالاة بين العاصي المُصِّر وبين والشيطان، هذه الموالاة الله –عز وجل– ييسرها لأنه اختار ذلك "نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ"، "فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ" لأنه "وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ" ومنع الطاعة، ومنع المال "وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ" الليل ٨: ١٠ يسهِّل الله له طريقًا إلى النار –والعياذ بالله– هو الذي اختار ذلك، بعد أن أنذره الله، وهذا السُنَّة ستأتي أيضًا مفصلة معنا في منتصف السورة، قبيل بداية قصة موسى –عليه السلام–، فيه فاصل في سورة الأعراف بين قصص الأنبياء كلهم وبين قصة موسى، في هذا الفاصل أيضا من سُنن الله –عز وجل– في معاملة الناس منها هذه السُنَّة المعاملة، أن الله –عز وجل– ينذر ثم يبتلي، ثم ييسر المعصية، ينذر الأول يرسل الرسل، فإذا أعرض الناس، أرسل عليهم البلاء ليعودوا، فإذا أصرَّ الناس فتح عليهم باب السراء، ففتح عليهم أبواب كل شيء.

كيف يكون الإنسان وليًا للشيطان؟

"إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ"، أصبحوا نوع من الصداقة بعد أن كان عدوا، ومن صور هذه الولاية كيف يتولى الإنسان الشيطان، وكيف يُصبح وليًا له، أنه ييسر انتشار المعصية في المجتمع، من صور موالاة الإنسان للشيطان أنه يساعد، هذا الإنسان الشيطاني أصبح من شياطين الإنس، خلاص اترقى وبقى تبع الشيطان، وبيترقَّى تبع الشيطان، أنه بيقوم بأفعال بتساعد مآرب الشيطان، ماذا يفعل "وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً" الأعراف: ٢٨.

ده رقم ١ أن يفعل الفاحشة.

رقم ٢ أن يسهَّل انتشارها في المجتمع "قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا " الأعراف: ٢٨

رقم ٣ "وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا" الأعراف: ٢٨، هذه الآية آية مهمة جدًا تبين لنا كيف تتطور المعصية في مجتمع.

مراحل انتشار المعصية في المجتمع

أول ما بتُفعَل المعصية في مجتمع بيبقى اسمها ايه "وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً"، الفاحشة من الفحش الشيء المبغَّض للنفس بالفطرة، حتى قبل أن يعلم الإنسان أن هذا من الشر هو ويبغضه، كالظلم، كأكل مال اليتيم، كالتعرِّي، يعني احنا كنا قلنا ان هما أبوينا "طَفِقَا يَخْصِفَانِ" الأعراف: ٢٢، قبل أن يأتيهم الأمر بالستر، لم يأمرهم الله استروا أنفسكما، ده أمر في الفطرة، أنهم سعيا إلى التَستُّر قبل أن يأتيهما الأمر، الأمر مركوز في الفطرة، ففي فاحشة هي مُبغَّضة إلى النفس أصلًا فأول ما بتُفعل المعصية، كأن تتعرَّى امرأة، تتبرج امرأة، كأن يفعل الإنسان معصية معينة أول حاجة المجتمع بيقابلها بالتنكُّر، المجتمع بيزعل؛ إيه ده ازاي يعمل كده، كيف تفعل المرأة هذا الفعل، وكيف يفعل الرجل هذا الفعل ويستنكروا ويستنكرا، والمجمع يستنكر ذلك.

لكن اللي بيحصل إيه؟ إصرار العاصي على تمرير معصيته، وعلى أن أمر الفاحشة دي تصبح شيء عادي، بيستعمل الضغط المجتمعي، يقول لك عادي المجتمع كله كده، وعلى فكرة التاريخ طول عمره كده، والأجيال السابقة كلها كده، "وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا "، حتى يحول المعصية من فاحشة إلى أمر مُبغَّض، إلى أمر مقبول، لسه مش محبوب للنفس، أمر لا تستبشعه النفس، يعني الناس أول ما كانت تسمع مثلًا كلمة إلحاد، أو شذوذ تستبشعه وتنفر منه، كثرة تكرار ده في الأفلام والمسلسلات والبرامج والنقاشات يكسر هذا الحاجز، لذلك إنت ممكن تستغرب أن حد يجيب في برنامج واحد ملحد حتى لو هيرد عليه، أو حتى لو في آخر الحلقة هيطرده.

أو إن هو يناقش قضية معينة هي أصلًا مُبَغَّضه، هو الآن يكسر هذا الحاجز النفسي، هذا الأمر المُبغَّض الفاحش المستنكر القبيح يتم كسره الآن تدريجيًا داخل النفوس، يصبح عادي؛ كان زمان لما كنت تسمع حاجة زي كده تستنكر وتغضب، يعني أول واحد تخيل كان ماشي في الشارع والصلاة شغاله، الناس تتعجب ماذا يفعل؟! ده ازاي الصلاة شغال ده بيعمل ايه في الشارع؟! دلوقتي بقى الناس بتعمل ايه في المسجد ساعة الصلاة الناس مستغربة الناس عادي بره في الشارع، دخلوا يعني ايه داخلين يعملوا ايه مايصلوا في أي حتة، ما العمل عبادة هو لازم يروح المسجد، بقى أمر غريب يعني هو لازم، لازم يسيب المدرسة ويصلي ولا لازم يسيب الشغل وينزل يصلي؟ فأصبح العكس، استمرار الإنسان والضغط المجتمعي اللي بيقوم بيه بيجعل الأمر بعد ما كان فاحشة، وأمر قبيح، أمر عادي مقبول.

يجب أن يتدخل العلماء لإيقاف تطور المعصية

هذا التطور إحنا اتكلمنا لسه من شويه بنتكلم عن مآلات الفعل، وإن العالم لابد أن يتدخل ليوقف هذا التطور، احنا قلنا العالم ينظر إلى المآلات بل قد يتعامل مع المباح ويشدد فيه، أول ما ظهر الشرك في العالم في الأمة، ظهر بسبب أمر كان مباحًا فيما يقوله بعض أهل العلم، بل مش كان أمر مباح ده عمله الأمر عشان يزدادوا في الطاعة، الشيطان دخل بمدخل قال لهم إيه؟ كيف ظهر الشرك في عهد نوح –عليه السلام–، "كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً" البقرة: ٢١٣،

اختلاف أهل العلم في تفسير الآية، جمهور المفسرين أي كانوا أمة واحدة على التوحيد، جمهور المفسرين إن "كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً"، أي على التوحيد.

مراحل ظهور الشرك

فكيف ظهر الشرك؟ إن كان فيه ناس صالحين وُد وسُواع ويغوث ويعوق ونشر، كانوا صالحين يعبدون الله فماتوا، فأراد الناس أو أوعز الشيطان إليهم أنهم يتذكروا هؤلاء الصالحين حتى يقوموا وينشطوا للعبادة، شوف مدخل الشيطان، دخل لك من مدخل إيه؟ عشان العبادة، إيه رأيك نصور هؤلاء في تماثيل معينة، صور معينة، نصور مثل هذه الأشياء، ونضع مثل هذه التماثيل في الميادين، أو في البيوت، فكلما رأينا هذه التماثيل ازددنا عبادة، وبالفعل قد يساعدهم الشيطان على زيادة العبادة، لأن كان فيه معنى جميل أشار إليه الشيخ الطريفي في مقالة رائعة اسمها المجسَّمات، كانوا عايزين يعملوا أشياء للنبي –صلَّى الله عليه وسلم–، كانوا عايزين يعملوه في مكة أو في المدينة.

أيا كان الخلاف الفقهي اللي أُثير حول هذا المتحف اللي كانوا عايزين يعملوه، الشيخ الطريفي بيقول إن العقيدة لها دورة حياة، العقائد لها دورة حياة، زي ما الإنسان له أجل، العقائد لها آجال زي ما الإنسان له أجل، لكن أجل العقيدة، عمر العقيدة أطول بكتير من عمر الإنسان، فتبدأ العقيدة في أول أمرها من المباحات، وعمر الإنسان ٦٠ سنة، العقيدة تظهر الشرك الذي بداخلها يظهر بعد ٥٠٠ سنة، متخيل معايا، يعني عقيدة بتبدأ بمباح أو بأمر مستحب، مباح، مكروه، حرام، شرك، دي دورة حياة عقيدة معينة كيف تصل إلى الشرك، حياة الإنسان قصيرة، فغالبًا يظهر الشرك في الأجيال الآتية مش في نفس الجيل اللي ظهرت فيه المشكلة، يعني مش الجيل اللي ظهر ده، اللي ظهر فيه تماثيل وُد وسواع مش هو ده الجيل اللي ظهر فيه الشرك.

سبب نزول هذه آية "إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ"

بل قال ابن عباس في البخاري: "حتى إذا تنسَّخ العلم"، العلماء ماتوا والعلم والعلم قل في المجتمع، وظل العلم يقل بالتدريج حتى ظهر جيل لا يعلم شيء عن الدين، ووجد هذه التماثيل فأتاه الشيطان وقالوا كانوا يعبدونها، أنت ممكن لأن احنا أعمارنا قصيرة، تستغرب يعني أنت عايز تقول لي يعني الموضوع ده ممكن يؤدي إلي الشرك لا أنا مش مصدق، لذلك حتى أيضًا في قصة إيساف ونائلة، في تفسير قوله –سبحانه وتعالى– "إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا" البقرة: ١٥٨، إيه اللي حصل؟ ليه الآية دي نزلت؟ كان المشركين أتوا بصنم على هيئة رجل إسمه إيساف ووضعوه على الصفا، وصنم على هيئة امرأة إسمها نائلة ووضعوها على المروة، القصة أن إيساف ونائلة، ذكر الإمام ابن كثير في البداية والنهاية وغيره، أنهما فجرا في الكعبة، سواء زنيا أو قبَّلها.

المهم أنهم فجرا في الكعبة فمسخهم الله –عز وجل– حجرين، فحتى يتذكر الناس هذه المعصية ولا يفعلوا هذه المعصية في الأماكن المقدسة، قالوا احنا عشان نفتكر هنحط إيساف على الصفا، ونحط نائلة على المروة، مع طول الزمان عبدا من دون الله، أنت متخيل، يعني زنيا أو فجرا في الكعبة ثم يُعبدان من دون الله، لذلك التطور في المعصية لا يتوقف عند حد، زي ما المعصية بتتطور في مجتمع، أيضًا الطاعة ممكن تندثر في مجتمع فينشأ جيل تيجي تكلمه عن حاجة في الدين يقول لك "مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ" المؤمنون: ٢٤، وممكن اللي أنت بتكلمه وعاند بالدين آيات مسطورة في القرآن محفوظة، يقول لك أنا أول مرة أسمع الكلام ده معقول؟ معقول الإسلام هو الدين العالمي اللي لازم ننشره للعالم، وإن هو الدين الوحيد الحق، وأن أي حاجة تانية من الأديان باطلة إيه الكلام الغريب ده؟ الكلام ده فين؟ الكلام ده فين هو حضرتك مش من هنا ولا إيه، الكلام ده في القرآن.

دور العلماء مع بداية ظهور المعصية

فتجد أصل من الأصول قد يُغيب مع طول الزمان، لذلك دور العلماء بدايات ظهور المعاصي اللي غالبًا مآلها إلى الشرك، أن يتدخل العالم واندثار العلم أن يتدخل العالم، لذلك هو العلم بيندثر إزاي؟ بموت العلماء.

يتطور الأمر فتتحول الفاحشة إلى طاعة

طيب هنا تعالوا نشوف التطور حصل إزاي، فعلوا فاحشة، الأول هي فاحشة اسمها فاحشة، عايزين يعملوا نوع من القبول المجتمعي للمعصية دي، يقولوا على فكره ده الموضوع من زمان مش احنا أول ناس عملناه، وجدنا عليه آباءنا، اغلطوا في الأباء بقى، اتكلم في الآباء، "وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا" الأعراف: ٢٨، بعد فترة على فكرة بقى ده دين أصلًا، "وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا"، شوف إزاي تبقى فاحشة إلى طاعة، زي ما كان إيساف ونائلة عُبِدا بقى دين عندهم عبادة إيساف ونائلة، أن الأمر بيتطور من الفاحشة إلى أن يُصبِح طاعة، يشرعنوا الفاحشة.

يعني الأول الرقص مثلًا، إن امرأة ترقص وتتعرَّى أمر مُبغَّض إزاي؟ فين الغيرة، وفين النخوة وفين الرجولة، يسميه الأول اسم زي ما قلنا شجرة الخُلد، نسميه فن، يعني أنا عايزك تتخيل كده مشهد كان مثل دايمًا بيُضرب الواحد سمعه كثير، الإخوة في التبليغ لما يحب يكلم واحد، عايز يقول له أنت إزاي تدخل التلفزيون اللي فيه أفلام ومسلسلات تدخله البيت، يقول له تخيل لو أنت ماشي في الشارع ولقيت واحد بيقبَّل فتاة في الشارع، مشهد أنت تغار وإزاي، فأنت قولت لهم إيه اللي أنتوا بتعملوه ده في الشارع؟ فقال لك طب فين، قال تعالى معايا، قمت وخدهم في البيت عندك وجايب طرابيزة السفرة وقعدتهم على السفرة، تقول لهم أيوه هنا، ورحت جبت زوجتك وأولادك وقعدتوا تتفرجوا عليهم، ده أمر يعمله عاقل؟

ما هو الإنسان اللي بيشغل الأفلام والمسلسلات اللي بيحدث فيها هذا وهو قاعد هو وزوجته وأولاده، هو ده نفس المشهد، هو ده أنت إزاي أصبح الأمر عادي، أمر عادي، كان أمر الأول قبيح، بعد كده أصبح فن، بعد كده أصبح

لا ده أمر مستحب ده من إدخال السرور على قلب مسلم، ده أمر ده الله أمرنا بها، دي هي بتتعبَّد كده، هي بدل ما ندعيلها أنت قاعد بتنتقدها، دي بتتعبد، شوف الأمر إزاي بيتطور، فإزاي الأمر ممكن يتطور، ثم الناس عادي تصدق ذلك، هو الإنسان بيحب يشرعن الحاجة حتى يفر من النفس اللوامة، عشان يهرب منها يشرعنها "وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا".

فاحشة، يفعلون فاحشة، ثم يقولون الله أمرنا بها، طيب الفاحشة اللي هنا دي هي إيه؟ جمهور المفسرين أنها الطواف، التعرِّي فالطواف، أنهم كانوا يطوفون عُراة حول البيت، الفاحشة اللي هنا، جمهور المفسرين أنها الطواف حول البيت عُراة، كانوا يطوفون حول البيت عُراة، وده أحد معاني أيضًا آية ٢٦، "أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ" أي أثناء الطواف، "يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ" يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ" الأعراف: ٣١، أي أثناء الطواف، فكتير من العلماء قال أن سياق الآيات دي بتتكلم عنه، أن التعرِّي مش بس ممكن يجي من شهوة، شوف الشيطان، يعني الشيطان دخل لأبينا آدم من شهوة الشجرة، فأدَّى إلى التعرِّي لا ده الشيطان له مداخل تانية.

مداخل الشيطان

إزاي الشيطان وصلهم أن هما يطوفوا حول البيت عُراة؟ كان بيقولوا أن قريش بس هي الحُمس هي التي من حقها أن تطوف بالثياب، أي حد تاني برا قريش لما يجي يطوف، يطوف عُريان، طب الشيطان أقنعهم إزاي بالموضوع ده، قال لهم إيه؟ قال لهم تطوفون في ثيابٍ عصيتم الله فيها؟ يا واد يا مؤمن، قالوا إيه ده؟ إزاي فعلًا؟ وقاموا مقطعين الثياب، ده من أكبر مداخل الشيطان، استغلال العاطفة اللي مش مبنية على علم، ده من أكبر مداخل البدع، أكبر مداخل البدع والشركيات استغلال عاطفة ليست مبنية على علم، فالشيطان قال لهم إيه؟ انتوا عشان تعطوا الله حقه وما قدرتكم الله حق قدره، أنتوا لازم تطوفوا عُراة بالبيت.

فبدل ما يخلِّي التعرِّي شهوة، ده خلاه داخل الطاعة، يعني نقل المعصية إلي داخل المسجد، عارف لما تيجي تطلع تكلم واحد مشغل أغاني بره، تقول له مينفعش، أنت طالع من المسجد تكلمه، لا ده هو أصبح بيدخل المسجد ويشغل نغمة الموبايل أغاني واحنا بصلي، يعني بدل ما نطلع للي بره نقول لهم اقفلوا الأغاني، هو بيجيب الأغنية يدخلها المسجد، فأصبح إن هو خلاهم يتعرّوا مش داخل بس أي مسجد، داخل المسجد الحرام، شوفوا مدخل شيطاني خبيث إن هو جاب لهم استغل العاطفة، ودايمًا زي ما قلت لكم، الشيطان بيستغل العاطفة اللي ليست مبنية على علم.

وكم من بدعةٍ مش بس معصية، بدعة وشركيات ظهرت بسبب الاستغاثة بالقبور، ما هي مبنية على بعض العاطفة، أغلب العقائد الباطلة، التصوف الضال والتشيع وغير ذلك، هي مبنية على استغلال العواطف، مش مبنية على عقائد صحيحة، استغلال هذه العاطفة، الإنسان ممكن يكون بداخله عاطفة يستغلها الشيطان، يقوم باستغلالها الشيطان، ويجعل الإنسان يضل، لذلك العلم هنا ضابط مهم جدًا، إن مش أي شيء عاطفي احنا نقبله، مش أي حاجة عاطفية،

لأن العاطفة ممكن تؤدي أيضًا هيجيلنا إن أحد معاني "قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ" الأعراف: ٣٢، أن ممكن الإنسان "وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا" الحديد: ٢٧، بسبب عاطفة.

العاطفة المبنية على غير علم تؤدي إلى البدعة والشرك

هو عايز يقدم قربان إلى الله فيحرم على نفسه أشياء، الثلاثة اللي شافوا عبادة النبي –صلَّى الله عليه وسلم– فكأنهم تقالوها، "فقال أحدهم أما أنا فأقوم ولا أنام، وأما أنا فلا أتزوج النساء، وقال الثالث وأما أنا فأصوم ولا أفطر"[٤] دي عاطفة مش مبنية على علم، فغضب النبي –صلَّى الله عليه وسلم– لذلك، أنت ممكن لما تسمع الكلام ده تقول إيه البطولة دي؟ لكن ده ممكن بعد فترة يؤدي إلى الضلال، في تطور هذه العاطفة إلى بدعة، ثم إلى شرك، نعوذ بالله –عز وجل– من ذلك.

قد يأتيك الشيطان في موطن الطاعة

فيقول ربنا –سبحانه وتعالى– يخبرنا كيف أن الأمور قد تتطور في مجتمع وأنهم يسعون إلى ذلك، فإذا فعلوا الفاحشة حتى يفعلوا هذا الأمر القبيح المستنكر عند النفس، يجعلونه مقبول، يقومون بنوع من الضغط المجتمعي حتى يقبله المجتمع، فيقولوا "وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا"، ثم يقومون بوضع تشريع لذلك، "وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا"، ينسبونه إلى الشرع، "قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ"، احنا قلنا أن في قصة إيساف ونائلة أنهم وضعوا إيساف على الصفا ونائلة على المروة، وهنا الشيطان لما أراد أن يأتيهم أتاهم في موطن الطاعة، لاحظ إزاي الشيطان ضحك عليهم وخلاهم يحطوا إيساف ونائلة على الصفا والمروة، مع أن مكة واسعة يعني، لكن حتى يتذكروا حطوا إيساف على الصفا، ونائلة على المروة.

خلط الشيطان بين الشعيرة والضلال

ولما الشيطان أراد أن يجعلهم يعني قضية التعرّي مش في أي مكان مش في السوق مثلًا، ما أقنعوهمش إن هما يدخلوا السوق عرايا، لا عند الكعبة، هذا الخلط الذي يقوم به الشيطان بين الشعيرة والفاحشة، لأن بعض العلماء وإن كان قلة قال "وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً"، ده الشرك وعبادة الأوثان الموجودة، الصنم الموجود على الكعبة، أو الأصنام الموجودة عند الصفا والمروة، لكن جمهور المفسرين احنا قلنا اللي هو إيه الطواف عُراة.

الشيطان بيقصد إلى نوع، ركز معايا في الحتة دي، الشيطان بيقصد إلى نوع من الخلط، بين الشعيرة والضلال، بحيث إن هما يبقوا مختلطين على بعض، يعني تخيل كده معايا مشهد إيساف، محطوط صنم إيساف محطوط فوق الصفا ملتصق به، ونائلة الصنم ملتصق بالمروة، دور العالم وده مهم جدًا الفصل، القدرة على الفصل والتمييز بين الباطل وبين

---

[٤] "إنَّ رهطًا من الصحابَةِ ذهبوا إلى بيوتِ النَّبيِّ يسألونَ أزواجَهُ عن عبادتِهِ فلمَّا أُخبِرُوا بها كأنَّهُم تقالُّوها أي : اعتبروها قليلةً ثُمَّ قالوا : أينَ نحنُ مِن رسولِ اللَّهِ وقد غَفرَ اللَّهُ له ما تقدَّمَ من ذنبِهِ وما تأخَّرَ ؟ فقال أحدُهُم : أما أنا فأصومُ الدَّهرَ فلا أفطرُ وقال الثَّاني : وأنا أقومُ اللَّيلِ فلا أنامُ وقال الثَّالثُ : وأنا أعتزِلُ النِّساءَ فلمَّا بلغ ذلك النَّبيَّ بيَّنَ لهم خطأَهم وعوَجَ طريقِهم وقال لهم : إنِّما أنا أعلمُكُم باللَّهِ وأخشاكم له ولكنِّي أقومُ وأنامُ وأصومُ وأفطِرُ وأتزوَّجُ النِّساءَ فمَن رغِبَ عن سُنَّتي فليسَ منِّي" صححه الألباني

الشعيرة، لأن أحيانًا القبول المُجمل أو الرد المُجمل والاثنين غلط، يا إما تقبل إيساف على الصفا زي ما هو يا إما تقول لا مفيش حاجة أصلًا اسمها الطواف بين الصفا والمروة، لذلك بعض المسلمين كان يتحرج مكنش بيروح يطوف بين الصفا والمروة، ليه؟ عشان إيساف ونائلة موجودين، فتركهما بالكلية.

دور العلماء في التمييز بين الحق والباطل

وفي ناس قبلت ذلك بالكلية، يعني هنسيب الصفا والمروة؟ فخلاص نسيبهم على بعض، فنزلت الآية بنوع من الدقة، "إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ "، أي إن الصفا والمروة فقط، "مِن شَعَائِرِ اللَّهِ"، إنما إيساف ونائلة لا، فلازم العالم يكون عنده القدرة على التمييز، يعني الطواف عُريانًا، الطواف مستحب، عُريانًا حرام، فاحنا نفصل، مش نلغي الكعبة خالص طاللما بيطوفوا عُراة، ولا نسيبهم وخلاص طالما ده طواف وكويس هنعمل إيه، يعني لا هنقفل الكعبة عشان بيطوفوا عُراة، ولا هنقبل الموضوع ونقول طالما طواف، الناس مش رايحة تلعب يعني، هنسيبهم وخلاص حتى لو بيطوفوا عُراة مش مشكلة، وبطل السوء الظن اللي عندك ده، وأنتوا دايمًا تفكيركم كده.

يقوم أهل الباطل بمزج الباطل مع الشعائر

لا إحنا لازم نقبل الطواف، لذلك قال "وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ" الأعراف: ٢٩، أنت مُطالب أنك تروح فعلًا وتستمر هناك عند المسجد، وتُقيم وجهك هناك فترة من الزمان عند المسجد، لكن خذوا زينتكم بعدها عند كل مسجد، يبقى قال "وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ"، ثم قال "خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ"، يبقى ده أمر مهم جدًا لأن دايمًا أهل الباطل حتى ينتشر الباطل يقوموا بتخليطه ومزجه بنوع من الشعائر، لأن الباطل الصِرف لا ينتشر بين الناس، يعني عايز يخلي الناس تقبل منهجه الباطل عن طريق الشهوات، ميقولهمش ازنوا، ممكن يكلمهم عن زواج المتعة، فاسمه زواج، فينشر هذه القضية، يعني هو يخيلها مُلابسة لنوع معين من أنواع الشر، هو كان حلال فترة وخلاص وأجمعت الأمة على أنه حرام الآن، على أنه نُسخ ذلك الأمر.

فهو إن أنت تأتي بهذا الأمر وتنشره ده نوع من الخلط بين الزواج والشهوة، والفجور في الشهوة، فأيضًا قضية إيساف ونائلة على الصفا والمروة، قضية الطواف عُريان، إن هو بيحصل نوع من الخلط بين الطاعة والمعصية، وتُقدم لك ممزوجة فانت تبقى متردد، طب أردها كلية هترد طاعة، هتقبلها بالكلية هتقبل معصية، فلازم القدرة حتى لو مش عارف تفصل ده في الواقع، على الأقل يُفصل في العقول، يعني لو أنت مش عارف الآن تقوم بمنع الطواف عُراة في الكعبة، لو ده موجود وأنت مش عارف تعمل ده اشرح وبيّن خلي ده مفصول في عقول الناس، حتى لو لم تفعله في الواقع، واضح القضية دي.

لذلك كان الرد، هما قالوا استدلوا على انتشار الفاحشة باستدلالين، "وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا"، حصل رد على الجملة التانية مش على الأولى، "قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ"، ده أمر مستقر في العقول وفي الفطر، الدين لا يأمر بالفحشاء.

الخطأ في التقليد يكون في نقاط معينة

هنا قضية "وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا"، بعض العلماء قال، إن ربنا مردش عليهم النقطة دي، لأن أصلًا قضية إنك تقلد الآباء ده استدلال فاسد، وهنا بعض المفسرين حمل على قضية التقليد وإن الإنسان مينفعش إنه يبقى مقلد، وصراحة الكلام ده مش منضبط أوي، لأن التقليد، أن تقلد غيرك مش مرفوض بالكلية، أمال هنا الغلط في التقليد بتاعهم في إيه؟ يعني هما غلطوا هنا في تقليد الآباء في إيه؟ العلماء قالوا في نقطتين، الخطأ مش في مجرد التقليد، بل بالعكس تقليد في حق من ليس عنده علم هو أمر واجب في حقه، ما هو ميعرفش "فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ" الأنبياء:٧.

أمال الغلط بتاعهم هنا فين؟ في قضيتين، الأولى: أنهم قلدوا من ليس أهلًا للتقليد، "وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا"، مقالوش مثلًا وجدنا إبراهيم –عليه السلام–، وجدنا الخليل يفعل ذلك، أولًا قلدوا إيه؟ من ليسوا أهلًا للتقليد، النقطة الثانية: أنهم قلدوا في أمر بدهي الفساد، أمر واضح الفساد، فده أنت المفروض أمر فيه فحشاء واضحة، فأنت متقولش أصل أنا مقلد، يعني مثلًا الوقوف بجوار الظالم، ومناصرته أمر واضح بيّن الفساد، متقولش أصل أنا مقلد، هو أنا مليش دعوة هما قالوا لي فوق وأنا بسمع الكلام، ده أمر واضح بيّن الفساد، فهنا المعاتبة على قضيتين، من ليس أهلًا للتقليد، وأمر بدهي الفساد.

دور أهل العلم والدين

إنما إن إنسان يقلد في مسألة لا يفقه فيها ده أمر بيتحتَّم إن لم يكن عنده علم، وليس عنده وسائل لتحصيل هذه المعلومة وهذا العلم، قال ربنا –سبحانه وتعالى– "فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ"، فلما كان استدلالهم فاسد لم يرد الله –عز وجل– عليهم، هما قالوا استدلالين "وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا"، فكان الرد على القضية الثانية فقط "قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ"، يبقى هنا تبيين ما قاله الله، وما لم يقله الله، إذًا من الواجب إن لما حد يقول ده من الدين، أن يتصدر أُناس ويقولوا هذا ليس من الدين، يبقى لما أُناس يدَّعون شيئًا وينسبونه إلى الشرع، وهذا شيء غريب على الشرع، أمر ليس من الشرع في شيء أن يقوم أهل العلم ويبيّنوا الحق، ويقولوا هذا ليس من الدين في شيء هذا أمرٌ باطل.

"أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ"، ثم بعد أن تبين الباطل، تبين الحق، "قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ"، قالوا هنا القسط بمعنى العدل أو التوسط في الأمور، التوسط في الأمور، اللي هو ما بين الإسراف

والبخل، أو الإفراط والتفريط، أمر ربي –سبحانه وتعالى– بالعدل، التعامل بالعدل مع ما يأتينا من الآباء، نتعامل بالعدل، هذا أي حاجة بتجيلنا من الآباء أو من الأمم، احنا بنوزنها بميزان العدل، الموافق للشرع نقبله، مش كل حاجة بنردها، ومش كل شيء بنقبله، "وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ"، المطلوب منكم عند المسجد ليس التعرّي، إذا أردتم المبالغة في العبادة فعليكم بالإخلاص لا بالتعرّي.

يعني الشيطان جالهم عشان يجتهدوا في العبادة، أتاهم الشيطان ليجتهدوا في الطاعة، عايزهم يسخنوا، قال لهم: أتطوفون بالبيت بثياب عصيتهم الله فيها انزعوها، فنزعوا اللبس، فنزعوا لباسهم وطافوا عُراة بالبيت، فربنا بيقول لهم أنتوا عايزين تجتهدوا في الطاعة مش تتعرّى، إقامة الوجه أي نوع من الملازمة، أي لا تلتفت فقالوا علامة على الإخلاص، "وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ"، أن تخلص لله الطاعة في كل مسجد وليس في الكعبة فقط، هذا هو المطلوب منك، ولهذا أُقيمت المساجد، مش التعرّي، فحصل توضيح الباطل من الحق، ثم تبيين الحق والدعوة إليه.

تفسير قوله –تعالى–"كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ"

"وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ"، ده منهج لما تنتشر معصية مختلطة بطاعة، شهوة مختلطة بشعيرة، باطل مختلط بنوع من الدين، هذا المنهج لأهل العلم التعامل معه، الفصل، التمييز، تبيين الباطل، هذا ليس من الدين أما الدين فهو كذا، ده منهج، "وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ"، أي أن الله –عز وجل– كما بدأكم ، العلماء اختلفوا في "كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ"، على قولين، القول الأشهر: "كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ"، أي أنه قادر على البعث كما بدأكم من لا شيء وخلقكم فهو قادر على إعادتكم وهو أهون عليه –سبحانه وتعالى–، وقال بعضهم "كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ"، متعلقة بما بعدها أي أنه أول ما خلقكم بعلمه، وبتقديره –سبحانه وتعالى– علم أن هؤلاء سيكونوا مؤمنين، وهؤلاء سيكونوا كفار، "فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ " الأعراف: ٢٩، فكما بدأكم في أول الخَلق، والله –عز وجل– قال هؤلاء مؤمنين وهؤلاء كفار بالفعل كانت النهاية أن هؤلاء مؤمنين وهؤلاء كفار لأن الله –عز وجل– هو قدَّر ذلك.

من أهم أسباب الضلال اتخاذ الشياطين أولياء

والمعنى الثاني مال إليه ابن كثير والمعنى الأول، اللي هو عليه الجمهور مال إليه الطبري، "كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ"، قادر على بعثكم مرة أخرى "فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ "، الناس بينقسموا دائمًا مع كل فتنة إلى قسمين، "إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ"، من أهم أسباب الضلالة أنهم لم ينفذوا الوصية، قال ربنا في وصيته لآدم، "اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ" البقرة: ٣٦، من أهم أسباب الضلال اتخاذ الشياطين أولياء، لم ينفذوا الوصية لحظة النزول–، أمرنا الله –عز وجل– أن نتخذ الشياطين أعداء، هنا من يتخذ الشياطين أولياء فيضل.

"إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ "، مش بس كده "وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ"، حينما يذهب إلى إيساف ونائلة، حينما يطوف بالبيت عُريانًا حينما يفعل هذا الباطل يظن أنهم مهتدي فالبتالي يرفض النصيحة.

البدعة من أكبر مداخل الشيطان

ودي إشكالية البدعة دائمًا وأبدًا أن كلما اجتهد فيما يظن أنه طاعة كلما ابتعد عن الله و–العياذ بالله–، النداء الثالث "يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ" الأعراف: ٣١، أن أحيانًا العاطفة الغير مبنية على علم لا تستطيع، ممكن واحد لا يستطيع أن يجمع إزاي أتعبَّد وأتزين، أحيانًا في تصور مثالي وهمي وده موجود بكثرة عن النصارى، زي قضية أن مفيش طلاق، فيه تصورات مثالية لا تطابق البشر، لا تناسب البشر، "وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا"، ربنا قال بعدها "فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا" الحديد: ٢٧، لأنها لا تناسب البشر فوق طاقتهم.

فأحيانًا الشيطان يأتي ليك، أو في تصور مثالي إن العبادة لازم معاها جوع وفقر، وزهد تام ومفيش أي زينة، وأي تزين ده معناه الفتنة، لا ده تصور غلط، هي القضية القسط في التوازن، فهذا التصور الخاطيء قد يؤدي إلى عدم القدرة على استكمال الشرع، لذلك لما عثمان ابن مظعون وغيره ذهب إلى النبي –صلَّى الله عليه وسلم– أراد أن يختصي وأن يتبتل، نهاه النبي –صلَّى الله عليه وسلم– عن ذلك، هو كان معتقد أن ده نوع من التفوق في الدين والكمال، إنه يقطع الشهوة تمامًا، لا القضية في وجود الشهوة لكن في وضعها فيما أمر الله –عز وجل– به، "أرأيت إن وضعها في الحرام عليه وزر"[٥]، فبالتالي إن وضعها في الحلال فله أجر.

الشرع لا يدعونا لتغيير الفطر ولا لنسف المشاعر

فيه ناس معندهاش تصور إزاي ياكل ويشرب وياخد ثواب، إزاي يتزوج وياخد ثواب، إزاي وهو بالطاعة بيتزين، مش قادر يجمع بين ده، فيه تصورات مثالية مبنية على عاطفة هي بتؤدي إلى نوع من البدع والضلال، هذا الدين جاء مناسب للإنسان لحاجياته، جاء الشرع لا بتغيير الفطر ولا بنسف المشاعر ولكن بتوجيه المشاعر، بضبط الإنسان، يعني الشرع مقلكش شيل من حياتك الشهوة والخوف، لا الشرع قال لك ضع الشهوة في مكانها، حتى يعني لما الواحد بيسمع حديث النبي –صلَّى الله عليه وسلم–، "من استطاع منكم الباءة فليتزوج"، مراعاة لحال الإنسان "ومن لم يستطع فعليه بالصوم"[٦].

الناس دايمًا عندها إن النجاح لازم إن هو يحقق حاجة أو يكسب حاجة، طب الصوم هو نوع من الإنهاك أصلًا، يعني نوع من إنهاك هذه القوة، والامتناع لأجل رضوان الله –سبحانه وتعالى– ده بالمفاهيم الدنيوية قد لا يُفهَم، إلا بقى لو واحد يقول لك أصل ده نوع من أنواع الديت ومش عارف إيه، لكن النبي –صلَّى الله عليه وسلم– قال لك ده عشان تطفيء هذه الشهوة، "عليكم بالصوم"، فممكن بالمعايير الدنيوية أنت لا تفهم مثل هذا الكلام.

---

[٥] "أَوَلَيْسَ قَدْ جَعَلَ اللهُ لَكُم مَّا تَصَدَّقُونَ بِهِ ؟ إِنَّ بِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةً ، وَبِكُلِّ تكبيرةٍ صدقةً ، وبِكلِّ تحميدةٍ صدقةً ، وبِكلِّ تهليلةٍ صدقةً ، وَأَمرٌ بِالمعرُوفِ صَدَقَةٌ، ونَهْيٌ عنِ المنكرِ صدقةٌ ، وفي بُضْعِ أَحَدِكُم صدقةٌ . قالوا : يا رسولَ اللهِ أَيأْتِي أَحَدُنا شَهْوَتَهُ وَيكونُ له فيها أَجْرٌ ؟ قال : أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي الحرامِ أَلَيْسَ كان يكونُ عليْهِ وِزْرٌ ؟ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَها فِي الْحَلَالِ يكونُ لَهُ أجرٌ" صححه الألباني

[٦] "يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ، مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ البَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، فإِنَّه أَغَضُّ لِلْبَصَرِ، وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَن لَمْ يَسْتَطِعْ فَعليه بالصَّوْمِ، فإِنَّه له وِجَاءٌ" صحيح مسلم

لو الإنسان ابتعد عن مقاصد الشريعة، هو لا يفهم يعني إيه، طب هو أهلك نفسي ليه؟ لأن أنت تريد أن تصل إلى تطبيق شرع الله –عز وجل– من مراد الله أن تبتعد، وأنا لا أستطيع الزواج الآن، فأنا أقوم بهذه القوة اللي في الجسد أقوم بصرفها في الطاعة، لكف هذه القوة عن طريق الامتناع عن الطعام والشراب والشهوة في الصيام، فإذًا الشرع جاء متناسبًا مع حاجيات الإنسان "خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ"، القضية مش قضية تعرّي بالعكس، ده بعضهم استحب إن المرأة حتى أن هي تضع الحُلي وإن كان ده من شواذ الأقوال، تضع الحُلي حتى وهي بتصلي، لكن بقول لك شوف بعض الفقهاء فكروا إزاي.

"خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا"، لأن كان بعضهم معتقد أن طالما رحت أحج مينفعش أشرب لبن، مينفعش أكل لحمة، أي حاجة جايه من الأنعام من الخرفان أمتنع عنها تمامًا، من الذي قال ذلك؟ ده شرع ولا عاطفة مش مبنية على شرع، فالعاطفة التي ليست مبنية على علم قد تجعل الإنسان يبتدع في دين الله –عز وجل–

الزينة لا تتعارض مع الطاعة

آخر آية نتوقف عندها "قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ" الأعراف: ٣٢، هذه الزينة من رحمة الله –عز وجل– أنها مشاركة بين المؤمن والمشرك في الدنيا لكنها خالصة للمؤمن في الآخرة، هذه الزينة هذه الدنيا مشاركة، "قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ "، لكنها خالصةً يوم القيامة، وإن كان بعض العلماء اتكلم في مسألة اللام "قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا"، هل دي لام الملكية المبحث طويل في المسألة دي، وهل الكافر لا يُملَّك المال وبالتالي مش من حقه أنه يُملَّك ولو انتصر أهل الإسلام على الكفار، ده مبحث طويل ذكره في باب السياسية الشرعية.

التصور الخاطيء عند بعض الناس

لكن الشاهد هنا أن نفهم أن الدنيا، بعض الناس معتقد حاجة من الاتنين، أن المؤمن مينفعش يبقى معاه دنيا، أو أن الكافر مينفعش يبقى معاه دنيا، هو أُحادي التفكير، عنده تصور يا إما أن الكفار لازم يكونوا أتعس ناس وأفقر ناس ومعهمش أي دنيا خالص، ولا أي ملذات، ولو حصل كده يبدأ يشك في الدين، يقول لك إيه ده إزاي الكفار معاهم فلوس؟ أو عنده تصور العكس أن المؤمن يعني لازم مُبتلى ومعهوش فلوس وفقير ومابيكلش، هو أُحادي التفكير، لو وجد أن ممكن مؤمن عنده نوع من الدنيا، أو كافر عنده نوع من الدنيا يبدأ يشك، لا هي مشاركة، وأن فيه السُنن لتوزيع الأرزاق في الدنيا مختلفة عن الهداية، عن قضية الهداية، وأن معاملة الله –عز وجل– في الدنيا أمر مختلف، كنت أشرت إلى جزء من هذا المعنى في خطبة جمعة في تفسير سورة الشورى، وقفات مع سورة الشورى، في هذا المعنى، أن فيه فارق بين أرزاق الدنيا وأرزاق الهداية، رزق الهداية مختلف عن الأرزاق الدنيوية.

"كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ"، اسأل الله –عز وجل– أن يرزقنا العمل بكتابه، وأن يرزقنا فهمه وتلاوته أناء الليل وأطراف النهار على الوجه الذي يرضى به عنا، اسأل الله –عز وجل– أن يجعلني وإياكم من أهل القرآن الذين هم أهله وخاصته، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

تم بحمد الله

شاهدوا الدرس للنشر على النت في قسم تفريغ الدروس في منتديات الطريق إلى الله وتفضلوا هنا:

http://forums.way2allah.com/forumdisplay.php?f=36